موقف أبي فهر محمود محمد شاكر من دعاة العامية

أ.الخثـير داودي/جامعة: ابن خلدون - تيارت
khatir.daoudi@yahoo.com

مُلخّص البحث

حملة شعواء نبت شوكها في أوقات متباعدة كشف سرّها ونجواها الأستاذ الكبير أبو فهر محمود شاكر رحمه الله الذي كان معاصرا لها آنذاك، تلك هي الدعوة إلى العامية التي حمل لواءها بعض المستشرقين، ورددها جمع من العرب المتأثرين بهم. فإذا زاحمت العامية مكانة الفصحى يعني هذا يجب أن يقبر التراث الإنساني العربي.

وإذا نجحت هذه الدعوة فإنها ستأتي على البنيان من القواعد فيصير حصيدا خامدا لا يصلح لشيء، وإذا زاحمت العامية مكانة الفصحى فإن حقل التعليم -الذي يعتبر حجر الزاوية في تكوين الإنسان- سيصبح مسرحا لتلقين الجهل والتخلف.

ثم ما معنى أن تكون العربية بدون الإعراب الذي انفردت به من بين سائر اللغات؟ فالإعراب في العربية هو الأداة والمفتاح للفهم والإفهام لمطالعة المكتوب على أيّ كان، لاكتساب المعرفة والعلم، ومن ظنّ أن العربية قاصرة، فهذا اعتقاد باطل من أساسه، يفنده حتى بعض كبار علماء اللغة المستشرقين المعتدلين وهو جورج فندريس حين يقول: «إننا لا نعلم إطلاقاً لغة قصّرت عن خدمة إنسان عنده فكرة يريد التعبير عنها.»

OOO

تتغيّا هذه الورقة البحثية تبيان موقف العالم والمجاهد أبي فهر محمود محمد شاكر من دعاة العامية الذين اشتدّ نكيرهم على العربية وعلومها في وقته، وهؤلاء كان معاصرا لبعضهم آنذاك، وهذه الحملة الشعواء نبت قتادها في أوقات متباعدة، وهي قضية مدبّرة في وقت غفلة العرب والمسلمين وهو تاريخ طويل عريض لا يمكن طيّه في هذه الصفحات.

بدايةً يقول الشيخ أبو فهر رحمه الله:« كان من قدر الله أنّ منارة العالم الإسلامي كلّه كانت في مصر، وهي الأزهر، فصار من الحتم المقطوع به أن تكون سياسة الغزو الأوروبي موجّهة إلى مصر قبل كلّ مكان في هذا العالم الإسلامي. فمن أجل ذلك كانت حملة نابليون سنة 1213هـ،1798م ولكنه لم يلبث بها قليلا ثم رحل.»(1) بعدما خرّب مصر، ورحل لأنه لقي ضربات ذات شوكة من المقاومة في سوريا التى أراد أن يفعل بها الأفاعيل من التخريب والسطو كما فعل في مصر.

وأراه لزاما عليا قبل أن أبيّن موقف الشيخ من دعاة العامية، أن أبين مذهبه الفكري المتفرّد في النظر إلى قضية الاستشراق، وفي النظر إلى حملة نابليون على مصر، وفي النظر إلى بعض الشخصيات العربية، لأن الشيخ له موائز منهجية لا يوافق فيها ما شاع عند الباحثين العرب، فأول ما « ينفي نفيا قاطعا أن تكون الحملة الفرنسية على مصر هي بداية التاريخ للنهضة الحديثة، على ما هو شائع لدى جمهرة الباحثين، بل هي البداية الحقيقية لنكبة مصر ودار الإسلام، ويأبى ثانيا أن يخلع على "محمد علي" صفة المؤسس الحقيقي لمصر الحديثة، ولا يرى في رفاعة الطهطاوي زعيما من زعماء التنوير والتحديث. وهو يرى أن النهضة ولدت إسلامية عربية خالصة حين بدأ إحساس بالخطر المحدق يداخل عددا من أعلام الثقافة، فانبعثوا يحاولون إصلاح الخلل في "اللغة" وفي "علوم الدين" و"العقيدة" و"علوم الحضارة" ويجعل على رأسها خمسة من الرجال: "عبد القادر البغدادي" و"الجبرتي الكبير"، و"محمد بن عبد الوهاب"، و"المرتضى الزبيدي"، و"الشوكاني". ويرجع بهذه النهضة إلى ما بين القرن السابع عشر الميلادي وأوائل القرن التاسع عشر، فهي عنده نهضة معاصرة للنهضة الأوروبية، وكانت يوشك أن تؤتى ثمارها. ومن ثم كانت الغاية من الحملة الفرنسية هي وأد اليقظة في مهدها (...) ونهب المخطوطات والقضاء على المماليك على يد نابليون بونابرت. أما "محمد علي" فعلى يده وئدت النهضة الداعية إلى صفاء العقيدة في جزيرة العرب (...) وبرزت فكرة البعثات العلمية التي هي عنده رجس من عمل شياطين الاستشراق والاستعمار. وكان رفاعة الطهطاوي منفذ سياستهم، وحامل وزرها بإنشائه "مدرسة الألسن" وإحداثه صدعا مبينا في ثقافة الأمة (...) ثم جاء الاستشراق الانجليزي ليرث دور الاستشراق الفرنسي، ويرسم دوره دنلوب لمصر سياسة تعليمية وضع بها أساس التفريغ الثقافي لجيل طلاب المدارس من

تاريخهم كله، وبذلك انتهى الأمر إلى ما نحن عليه الآن من فساد وبيل في الحياة الأدبية من كل وجه.»(2)

فهذه النظرة فيها كثير من التفرّد والأحادية، وهذا طبعا يعود إلى تكوينه المحكم ولانغماسه الكلّي في ثقافته العربية الإسلامية علما وفهما، لأن هذه الرؤى لا تنبع من باحثٍ آكاديمي، وإنما تصدر من خبير عانى كل المعاناة في الذي يقوله، وقضية الدعوة إلى العامية هي قضية شاقّة بحيث أنه كشف سرّها ونحواها بعد لأيّ من المعارك السياسية والأدبية حتى دخل بسببها السجون فبدت ظاهرة للعيان لدى جماهير الناس، يقول عنها: « وهذه الدعوة هي دعوة استخدام العامية واستبدالها بالفصحى في التعليم والكتابة، التي لم يكن لها مخرج في مصر منذ سنة 1880م إلى سنة 1902م، إلا من ثلاثة من المبشرين، في أي ثياب مدنيّة كانوا، هم "سبيتا" الألماني و"ويلككس" و"ولمور" الانجليزيان، ومخرج من بيروت، هو مجلة المقتطف، التي كانت ترتضع أسباب بقائها يومئذ من أكبر مؤسسة تبشيرية دخلت إلى ثغر من ثغور بلاد العرب فاستقرت فيه سنة 1865م، وهي "الكلية السورية الإنجيلية".»(3)

فهؤلاء المستشرقين المتجسسين الذين نصّبهم الغرب أو نصّبوا أنفسهم لدراسة تراث العرب باسم الإنسانية -وهو شعار برّاق مرفوع في الظاهر فحسب- عرفوا أهميته وخطره في صناعة حضارة عربية حديثة، وأدركوا أنه سابق لأوانه ولجغرافيته الزمنية والمكانية، فتوجّسوا من هذا خوفا من ردة فعل من العرب والمسلمين آنذاك، تكون جزاءا وفاقا لحضارتهم، تشفي صدور قوم منكسرين ومستضعفين. فلم يجدوا رابطا قويا يجمع العرب والمسلمين من اللغة فانبروا لها بالدعوة إلى العامية، بحيث نجد « الدكتور ولهلم سبيتا الرائد الأول لكل من كتب في العامية المصرية من الأجانب، ففي سنة 1880م وضع كتابا في الألمانية عن "قواعد العربية العامية في مصر" ومن هذا الكتاب انبثقت الدعوة إلى اتخاذ العامية لغة أدبية (...) فهذا الكتاب الذي يعتبره الباحثون أول محاولة جديّة لدراسة لهجة من اللهجات العربية المحلية هو الذي خلّف معظم مشاكلنا الأدبية واللغوية التي استنفدت جهدنا ووقتنا في هذا العصر.»(4) لأنه أدرك في وقت مبكّر شجاعة العربية وقوة شخصيتها، وإذا لم يقض عليها في هذا الوقت وهو وقت الغفلة والغفوة، فسيظهر زحفها الجارف عليهم، ليهلك فيه من هلك وينجو من نجى.

يقول سبيتا:« وأخيرا سأجازف بالتصريح عن الأمل الذي راودني على الدوام طول مدة جمع هذا الكتاب، وهو أمل يتعلق بمصر نفسها وبمس أمرا هو لها وإلى شعبها يكاد يكون مسألة حياة أو موت، فكل من عاش فترة طويلة في بلاد تتكلم العربية، يعرف إلى أيّ حدّ كبير تتأثر كل نواحي النشاط فيها، بسبب الاختلاف الواسع بين لغة الحديث، ولغة الكتابة.»(5)

فمن هذا التصريح تكتشف أن هذا الرجل يعيش لقضية ويدبر لها، والذين جاؤا بعد "ولهلم سبيتا" كانوا كذلك يمشون على منهاجه، يقول الشيخ أبو فهر:« فقد كان أيضا في مصر "كارل فولرس الألماني" خادم الإنجليز، و"ويلككس" المهندس المبشر الأنجليزي، وبدأ كل منهما حركة منفصلة، ولكنها متصلة المعاني، فألّف فولرس كتابا في "اللهجة العامية المصرية الحديثة في مصر" سنة 1890م ثم تولى ترجمته في سنة 1895م إلى الانجليزية "بوركيت". وألح على ما ألح عليه سبيتا، من صفة العربية الفصحى بالجمود والصعوبة، وشبهها باللاتينية، وشبه العامية بالإيطالية. أما ولككس، فألقى محاضرة ونشرها في مجلة الأزهر، التي آلت إليه سنة 1893م وزعم فيها: أن الذي عاق المصريين عن الاختراع هو كتابتهم بالفصحى ودعا إلى التأليف بالعامية.»(6)

فهم يوهمون الدارسين العرب بهذه الكتابات بحجّة الجديد وباسم الحداثة وأن هذه العربية الفصحى لغة رجعية، وإن لم تتخلوا عنها فستبقوا هكذا في كل اتجاهات الحياة متخلفين، ولقد كانوا يبذلون في إنجاح هذه الدعوة كل أساليب الدعاية والإغراء، يقول ويلككس:« من قدّم لنا هذه الخطبة باللغة الدارجة المصرية، وكانت موافقة جدا، يكافأ بإعطائه أربعة جنيهات إفرنكية، وإن كثر المتقدمون، فيعطي هذا المبلغ لمن يحوز الأوليّة.»(7) فهكذا كانوا يبذلون لانجاحها، فكل من يستجيب لهذا النداء فهو غنيمة حرب لغوية حضارية أروبية مسيحية، ولقد نجحوا في استقطاب أعدادا من المفكرين العرب عندما شككوهم في أمر لغتهم، فانبروا في عضد هذه الدعوة « وفي سنة1901م وضع سلدن ولمور القاضي الانجليزي كتابا في الانجليزية عن العامية المصرية بعنوان "العربية المحكية في مصر" اتجه فيه وجهة سبيتا.»(8) وكأنهم أخذوا عهدا أكيدا على هذا الأخير ليتواصلوا على طريق واحدٍ في إفقاد العرب والمسلمين عنصر الإيمان بهويتهم في اللغة التي عليها المعوّل.

ويتواصل البحث، «في سنة 1906 اشترك باول وهو انجليزي كان يعمل قاضيا بالمحاكم الأهلية بالقاهرة اشترك هو وزميل له يدعى فيلوت (...) في وضع كتاب في الانجليزية عن العامية المصرية بعنوان "المقتضب في عربية مصر".»(9) هكذا كانت بدايات الدعوة إلى العامية بإيجاز، وهذه الكتب الأربعة الأجنبية هي مصدر الدعوة إلى العامية : فهي أولا مصدر الشكوى من النحو العربي الذي نال مساحة عريضة من النقاشات حتى جعلوه مشكلةً من نوع خاص، ليس إلا ضحية هذه الدعوة، فأغلب من كتبوا في القضية النحوية باسم التجديد والإصلاح ليسوا إلا ملبين لتداعيات هذه الدعوة التي جنّدت لها إمكانيات من المفكرين من أبناء جلدتنا يحار فيها اللبيب، من حيث يدرون ولا يدرون، وكما قال الأول:

يبكي عليه غريب ليس يعرفه وذو قرابته في الحيّ مسرور

عندما نجد بعض الأجانب أمثال "فندريس" في كتابه اللغة، و"يوهان فك" في كتابه العربية ولهجاتها، وغيرهما ممن اعترفوا بل حتى خدموا هذا النحو العربي، وفي ذات الوقت نجد أبناء العربية في بدء هذه الدعوة المشؤومة ضربوا النحو، أمثال "حسن الشريف" صاحب مقال "تبسيط قواعد اللغة العربية" نشره سنة 1938، وأنيس فريحة صاحب كتاب "نحو عربية ميسرة" الذي يرى فيه أن الإعراب عبارة عن زخرف اصطنعه النحاة الأوائل. ومحاولة مصطفى ابراهيم في كتابه إحياء النحو، الذي أحدث به بلبلةً في صفوف الدراسين العرب، ولكن باءت كل هذه المحاولات الخاصة بالنحو بالفشل لأنهم لم يعلموا حقّ العلم أن هذا النحو هو ليس من اختلاق النحاة الأوائل حتى يكون قابل للزيادة والحذف وإنما هو استقراء وتتبع للعربية على منهج علمي وموضوعي.

وهذه الكتب الأربعة هي مصدر الشكوى كذلك من الكتابة العربية، بحيث نجد اقتراح عبد العزيز فهمي سنة 1943، وهو أول من اهتم بهذه الفكرة كما ترى الدكتورة نفوسة زكريا، وهو صاحب كتاب "تيسير الكتابة العربية" الذي قابل فيه جميع الحروف العربية واستبدالها بالحروف اللاتينية، مثل:[w مكان و، d مكان ذ...الخ].

والشكوى من الكتابة العربية بأنها صعبة ومعقدة، هي شكوى من علم الصرف بطريقة أخرى لتردف هذه الأخيرة، الشكوى من علم النحو وهذا لكثرة أوزان علم الصرف وأبنيته واشتقاقاته وأبوابه. والدعوة إلى

استبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية هي أخبث دعوة ولو لقيت قبولا هذه الدعوة لكانت الكتابة العربية ضرب من الطلاسم، لكن غيرة الشيخ على حمى العربية قمعتها في محاولاتها الأولى.

ومن الذين تصّدى لهم الشيخ أبو فهر، "توفيق الحكيم" الذي رفض بوجود لغة عامية محايدة، وإنما الفصحى والعامية في نظره هما سيّان تقريبا، إلا في بعض الحالات من نجد في العامية بعض الاختزالات والرخص والاستبدلات، كاستعمال الحاء بدل السين في المستقبل، مثل: حاكتب بدل سأكتب، وكما تساهل في الإعراب، استنادا إلى قول القائل "سكّن تسلم"، ولكن الشيخ يرى أنها قيلت في رجل ظلّ يلحن فيراجع مرّات، فضاق صدر سامعه فقال له "سكّن تسلم". ولم يكتفي "توفيق الحكيم" بهذا الشاهد الذي أساء فهمه، بل تعدّاه بإساءة أكثر منها، عندما استدلّ "بالقراءات السبع" زعما منه أنها حجةً في جواز تلافي الإعراب، غير أن الشيخ ضلّل مذهبه ورماه بالتلاعب والإستهانة بأمر العربية.

ومن أوئل رجالاتنا الذين تولوا ميراث هذه القسمة « رجلٌ ولد سنة 1872م، وأتم تعليمه في عهد الاحتلال سنة 1885م، وتعليمه الثانوي سنة 1889م، ونال شهادة الحقوق سنة 1894م، (...) وهذا الرجل هو "أحمد لطفي السيّد".»(10) ويعدّ من أوائل ضحايا الخداع الفكري الأروبي، وذلك عندما وقع في شراكهم، يقول الشيخ أبو فهر عنه:« دخل هذا الرجل إلى دعوته مدخلا غريبا في وصف غنى العربية فيما يتناول المعاني والمسميات القديمة، وفقرها في المعاني الجديدة والمصطلحات العلمية. وظل يدخل من باب ويخرج من باب، ويلقى ريبة ثم يرحل، ويأتي بحجة واهية ثم ينقضُّ، فيطالب الكتّاب بأن يتسامحوا في قبول المسميات الأجنبية ويدخلونها في كتاباتهم، كما أدخلها الجمهور في المخاطبة.»(11)

بمعنى آخر، فأنجع طريقة من منظوره لاكتساب المعرفة والعلم ليلحق العرب بالركب الحضاري، التساهل في احتضان المسميات الأجنبية، وإحياء العامية، يقول لطفي السيّد:« وأقرب الطرق إلى هذا الصلح "يعني العامية والفصحى"، أن نتذرع إلى إحياء العربية باستعمال العامية، ومتى استعملناها في الكتابة، اضطررنا إلى تخليصها من الضعف، وجعلنا العامة يتابعون الكتّاب في كتاباتهم، والخطباء في خطاباتهم، والممثلين في رواياتهم.»(12) أراد أن يقول بكل صراحة إن العربية لغة قاصرة وأن العامية هي الأداة والمفتاح للتواصل

والتفاهم والتحضر، لكن الشيخ رماه بالتناقض، وما هو في حقيقته إلا مستعمل لأعداء العربية من حيث يدري، أو لا يدري.

وسبق أن ذكرنا أن الشيخ لا يرى في رفاعة الطهطاوي زعيما تنويريا كما يراه بعض الباحثين العرب، بل يراه هو فريسة لمسيو جومار المهندس الخبير الفرنسي في تطعيم قلوب المغفلين لحبّ بلادهم كيف يكون، وذلك عندما وقع في شراك التيار الداعي إلى العامية.

يقول الشيخ عنه:«ولكني لا أشك أن هذا الرأي الذي وقع فيه رفاعة الطهطاوي، لم يكن رأيا استحدثه هو، بل جاءه أيام كان مقيما مع البعثة بفرنسا، غرّه به داهية من دهاة القوم، عرف ما يكنّ رفاعة لبلاده من حب التقدم، فلم يزل به حتى أراه الباطل حقا.»(13) وهو المسيو جومار الفرنسي.

ذلك أن رفاعة قضى « ست سنوات في باريس من سنة1826 إلى1831م، قضى ثلاث سنوات منها في تعلم اللغة الفرنسية، وفي الثلاث الأخر درس التاريخ، والجغرافيا والفلسفة، والآداب الفرنسية، وقرأ مؤلفات فولتير وجان جاك روسو، ومنسكو...»(14) وهو يسمع ويرى كذلك خلال هذه الستّ سنوات ما أبدعته حضارة الرجل الأبيض، وعندما رأى من مفاتنها ما رأى، أفقدته السيطرة على عقله وتوازنه، فتاه عقله نتيجة الذهول بسبب أنه أكبرها في قلبه وأعظمها في نفسه من دون نظر، وهذا الولع الجارف في عشق بريق هذه الحضارة أفقده حاسّة التمييز -كما أفقد كثير من المنجرفين- جعله يفتي العرب في أمر لغتهم الفصحى بأن ننزل بها إلى العامية.

ولقد كان الشيخ محقّا في نظرته الأحادية إلى رفاعة الطهطاوي، رغم كل من خالفه فيه، وذلك أن رفاعة يقول من خالص عقله بعدما قضى نحبه في فرنسا، في نصرة هذه الدعوة، «نعم إن اللغة المتداولة في بلدة من البلاد، المسماة باللغة الدارجة، التي يقع بها التفاهم في المعاملات السائرة، لا مانع أن يكون لها قواعد قريبة المأخذ تضبطها، وأصول على حسب الإمكان تربطها، ليتعارفها أهل الأقليم، حيث نفعها بالنسبة إليهم عميم، وتصنف فيها كتب المنافع العمومية، والمصالح البلدية.»(15) فيا ليته فطن هذا المفكّر العربي أنه مستهدف لحملة التبشير والفرنسة والتمصير، وأنه مستعمل لمكايد جدّ خفية ضد هويته ولغته. وأن الذي يدعون إليه أفكار مسمومة لفتك قلوب العرب والمسلمين.

ومن أخطر المفكرين الذي زادوا في دعم هذه الدعوة خطوة "سلامة موسى" الذي دعا لها في جل كتبه كـ:"البلاغة العصرية"، و"أدب الشعب"، وهو الأستاذ الروحي للويس عوض، يقول سلامة موسى عن تلميذه البارّ "لويس عوض" الذي سيكون له شأنٌ كبير وشأوٌ خطير في الإشراف على هذه الدعوة: «وإني لأعلم أنه قد عاهد الثلوج الغزيرة المنشورة على حديقة مدسر، في خلوة مشهودة بين أشجار الدردار عند الشلال بكامبردج، ألا يخط كلمة واحدة إلا باللغة المصرية "يعني العامية"، وقد برّ بعهده في العام الأول بعد عودته، فكتب شيئا بالمصرية سماه "مذكرات طالب بعثة"، ولكنه استسلم بعد ذلك وخان العهد فلتغفر له الثلوج الطاهرة التي لم تدنّسها حتى أقدام البشر.»(16) فمن شنشنة هذا الكلام يدلّ على أنّ قائله صاحب قاعدة ثقافية مسيحية وثنية، يخفي وراها عداء عقائدي وفكري لكل من يخالفها.

وهذا مرسوم صريح آخر يسابق معناه لفظه، يقول فيه سلامة موسى:« من مصلحتنا ومصلحة العالم كله أن تغرس في أذن جميع العرب في مصر والعراق وسوريا وشمال إفريقيا أنهم أوروبيون سلالة وثقافة وحضارة وعليهم أن يسيروا مع أرقى الشعوب الأروبية، يتثقفون بثقافتهم ويتعودون عاداتهم...، هذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي سرا وجهرا، فأنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب.»(17) وليس بعد هذا التصريح النابع من أوحال الوثنية الغربية من تصريح. ليتقيه من يتّقيه، ويحويه من يحويه؛ وليس يحتاج النهار إلى دليل.

فسلامة موسى بهذه القاعدة الوثنية ظلّ ينفخ في تلميذه لويس عوض حتى انفجر في سنة 1947م عن كتاب، طبعه وسّماه "بلوتولند وقصائد أخري، من شعر الخاصة" فجاء لويس نسخة منقحة منه حتى استطاع أن يفتي في جواز ترجمة القرآن إلى العامية المصرية."(18) بلا استحياء منه، للنجو –بزعمه من غش رجال الدين_، ولم يكتف بهذا بل تعدّى على حرمة الحديث النبوي الشريف، وتطاول كذلك على تراث العرب، بأنه مزق من الثقافات الأخرى.

و"لويس عوض" هذا، ناقد ومفكر نصراني، شديد الكراهية للإسلام وهو صاحب كتاب "مقدمة في فقه اللغة العربية" الذي زعزع به بعض الثوابت الراسية عند رجال التاريخ ورجال اللغة، وهذا الكتاب تمّت مصادرته، واعتقاله بسببه، ومن بين الأفكار التي بُثت فيه، أنه يرى العربية لغة محدثة،

وأنها لم تكن لغة آدم عليه السلام في الجنّة، وأنها لم تكن مسطورة في اللوح المحفوظ..

وتعدّ كتاباته الافترائية التي كان يصدرها عبر كتبه وعبر المجلات والصحف، هي السبب الأول التي أخرجت الشيخ من عزلته التي كان قد ضربها على نفسه مدة 13عاما متواليات أو تزيد، والشيخ في هذه المعركة الأدبية كان عمره أكثر من خمسين سنة بمعنى أنه كان في أتمّ استوائه العلمي، بحيث نازله حتى احترقت نفسه وفكره معه، ففضح كل الدسائس والمكايد والسموم التي كانت تحاك ضد العرب والمسلمين.

ولهذا فإن المطلع على كتاب الشيخ أبو فهر "أباطيل وأسمار"، ليرى ردود مبرهنةً مستوحاةً من عقيدته وإيمانه، وتعدّ من طراز كتابات الأوائل لا يخرم فيها مشيتهم، وإن القارئ لهذا الكتاب فحصا أو مسحا ليشعر أن الرجل نزل إلى الميدان، عندما يحسّ بهذه الثقة العلمية المركزة وهو يتصفح هذا الكتاب، وقوةً في الحجاج العقلي واللغوي الذي دك به عروش هذه المنظمة الفكرية. التي شنّ عليها حربا مضريّةً مجردةً من كل تعاطف أومجاملة حتى أسقط على "لويس عوض" الذي يعتبر الواجهة لها، جميع الرتب العلمية التي تحصّل عليها، ولقبه بالشرلتان أي المنافق المتلاعب المحتال، وأثبت أنه مفكّر مهزوز الشخصية وفي منتهى الوقاحة وقلة الأدب وما هو إلا متنفّخ بالمنهج وهو عار من كل أسبابه، وهذا كله قليل إذا تعلق الأمر في الدفاع عن جناب ميراث العرب والمسلمين قرآنا وسنةً وأدبا.

قد يقول قائل، ما الذي جعل لكلام لويس عوض له خطر على العربية؟ -رغم أن هذه الدعوة تملك أسباب التهافت في ذاتها- الإجابة هما شيئان اثنان، أولا: لأنه يحمل لقب دكتور لما له من قرع قوي على نفوس الناس آنذاك، ولأنه قليل ما هم من يحمل هذا اللقب، وهو ليس أهل له وهذا ما جعل الشيخ يسقط عليه هذا اللقب، ثانيا: لأنه مستشار ثقافي لمجلة الأهرام التي تعتبر العرق النابض لحياة العالم العربي آنذاك، والتي يعرفها العام والخاص. فهذان الأمران هما اللذان جعل من كلامه ساري المفعول في حياة الناس رغم تفككه.

فبدأب وإخلاص وتفانٍ، وإصرار في المتابعة لما يحاك ضد مقومات الأمة العربية استطاع الشيخ أبو فهر أن يثبت أن لسان "لويس" ليس لسانه، والفكر ليس فكره، والأدب ليس أدبه، يقول عنه « إن أجاكس ليس

واحدا...ولكنه جماعة كثر، قد انبثوا في كلّ مكان، وهم يطيفون به إطافة الوثنيّ بالصنم، لا لأنه شيء في نفسه، بل لأنه المدير الذي يدير هذه الدّمى، قد جعله منهم بمنزلةٍ، ليضمن سهولة تحركهم في نواحي نشاطهم تحت ثياب يتخفون فيها، وهم جميعا يستعدّون لوقت قد وقّتوا له.»(19)

وإن تقصّي الشيخ في استئصال هذه الدعوة أثبت أن لها دعما حتى من اليهود، بحيث أن "يعقوب صنوع اليهودي" صاحب مجلة، "أبو نظارة" والتي صدر منها 15عددا، وكان العدد الأول سنة 1878م كان يستعمل فيها العامية ممزوجة بحجة التنفيس والتنكيت، وذلك لتستصيغ النفوس الناشزة هذه الدعوة، وتستصيغ الأدب العامي شيئا فشيئا حتى يألفه العرب كتابةً ومخاطبا.

والأمر الذي نتواصى عليه وهو: لا يستهزئن بضعف كيد هذه الدعوات مستهزأ، وهم نحن فيها يلهينا الأمل!؟ فقد تفرط علينا هذه الدعوات المضادة للعربية بالعجل، وكما نرى في أنفسنا رقّة وإشفاق حالنا في كل اتجاه من اتجاهات الحياة، تربويا وتعليميا واقتصاديا وسياسيا... فلا نستطيع أن نباشر مفاعلاتها في حالة ما، إذا استفحلت وشبّ ضرامها وخاصة في غياب فحول النظار الحرّاس على ميراث العرب والمسلمين. لأنه من نظريات أعداء العربية المتدسّسين أنهم لا يحددون محل النزاع ولا مواطن الاتفاق بيننا وبينهم بصورة واضحة، وهم يتخافتون في التصريح عن معاداة العربية والإسلام وما بينهما، من الجهات الظاهرة، ولهذا فهم يتسترون في نصب العداء عن طريق دواليب السياسة ومحاريب العلم ومسالك الاقتصاد، وفي كل شيء، بحيث يختلقون قضايا في كل مرّة ليلجّوا فيه طغيانا، ولقد نجحوا من جهة اللغة بأن زرعوا ألغاما فكرية وها نحن نحصد شوكها اليوم وهو ضعف طلاب العربية البادي العوار في جميع المؤسسات التعليمية.

وهذه الدعوة في نظر الشيخ مرتبطة بعقائد مسيحية وأحداث سياسية واجتماعية، وليست هي قضية أدبية كما يحلو للمتسطحين أن يسمونها، ولهذا يرى الشيخ بأنها:« أكبر معركة تدور في العالم العربي والإسلامي، وهي معركة البناء أو الهدم، معركة الحياة أو الموت، معركة الحرية أو الاستعباد، معركة وحدة العرب والمسلمين بلغة عربية واحدة هي الفصحى، أو تفرّق العرب والمسلمين أشتاتا بلغات متنابذة هي العامية.»(20)

إن معتقد الفكرة يكون أخطر بكثير من الذي يعلمها، سواء بالسلب أو بالإيجاب، وبالتالي فإن المعتقدين في دعوة العامية منّا جروا صغارا كبيرا على

العرب والعربية، فإذا زاحمت العامية مكانة الفصحى يعني هذا يجب أن يقبر التراث الإنساني العربي، فلا يصلح أن يقرأ القارئ العربي ويفهم بالعامية التي هي مشتقّة من العمى، ولقد جاء في لسان العرب هذا المعنى، قال الشاعر:

لا تأتينّي تبتغي لين جاني***برأسك نحوي عامياً متعاشيا

وإذا حصل هذا! فلقد أتت هذه الدعوة على البنيان من القواعد فصار حصيدا خامدا لا يصلح لشيء، لأن العامية وليدة الأمية والأمية وليدة الجهل، وهل بعد الجهل من ظلام. ثم إنه لا معنى أن تكون العربية بدون إعراب الذي انفردت به من بين سائر اللغات، ولا معنى للعربية أن تستبدل حروفها بالحروف اللاتينية، ولا معنى أن تعتمد العربية لغة التسكين. ولو ندري ما معنى أن تحلّ العامية محل الفصحى!؟ لنفرنا لنقض هذه الدعوة أفرادا وجماعات، ولحاربنا دعاتها إلى أن يموت الأعجل منّا، لكن وللأسف نحن لم نعرف قيمة اللغة العربية كما عرفها الأوائل، ولو كنا عرفناها لعرفنا ما معنى أن يكون الغشّ والخداع في العلوم الإنسانية أخطر أنواع المكر والدهاء، كما يرى الشيخ أبو فهر.

إذًن فقضية الدعوة إلى العامية هي قضية عزّ أو ذل، بل أكثر من ذلك بل هي قضية حياة أو موت، يقول الشيخ أبو فهر:« المنبع الذي تدفق منه هذه القضايا على عالمنا العربي والإسلامي، منبع واحد، إن شئت أن تسمّيه "الاستعمار" أصبت، وإن شئت أن تسميه "التبشير" أصبت، وإن شئت أن تسميه "الاستشراق" أصبت، لأن هذه الثلاثة أسماء متباينة لحقيقة واحدة.»(21) وليس بعد هذا البيان من بيان.

وإن كان لا بد من كلمة حقّ أخيرة، في هذين الرجلين فإنه كان بينهما قراع بمستوى النظير للنظير في شدّة تمسك كل واحد منهما بمذهبه، ومن حيث أن أحدهما في أقصى اليمين والآخر في أقصى اليسار، أما من حيث العلم، فالشيخ شاكر ارتفع على نظيره ارتفاعا كبيرا من حيث التأصيل والاطلاع الواسعين على الثقافة العربية الإسلامية فيما نجده من ردوده، في حين نجد لويس عوض صاحب منبر كبير وشأن خطير من حيث الوظائف السامية التي تقلّدها بحيث عمل مديرا للثقافة بوزارة الثقافة، عام 1959م وعمل مستشارا ثقافيا لدار التحرير للطبع والنشر، عام 1961م وعمل مستشارًا لمؤسسة الأهرام 1962 –1982م، وهذا ما جعله مسموع الكلمة آنذاك.

صحيح أنّ التغاير والتحاسد بين الأقران هي صفة مغروزة في أغلب النفوس وما نجى منها إلا الأنبياء والمرسلون وممن عصمهم الله سبحانه وتعالى، فقد ثبت عن السلف قولهم أنّ "المعاصرة حجاب"، وهذا إذا كان المتعاصران في صناعة واحدة، فينشأ التزاحم والتناحر بين النظراء، فيغور أحيانا ميزان العقل بينهما، فالمطلوب هو التأني والتريث في مرعاة الظروف والدواعي بين الخصمين في قضية ما حتى لا يظلم أحد في شيء.

أما خصومة الشيخ شاكر ولويس عوض هي قضية "دين وهوية وميراث" وليست غيرةً جوفاء، ثم إنه لا ينبغي التساهل فيها أو التسامح معها قدر قلامة ظفر، فبهذه القضية إما أن يكون الإنسان العربي المسلم أو لا يكون، بل أسفرت المعاصرة التي حدث بسببها الخصام واللدد بينهما إيضاحا للحقّ وإبطالا للباطل، ولم تنتج حجابا. ثم إنه قد ردّ على "لويس عوض" جمهرة من الباحثين المعاصرين له، من بينهم: جلال كشك، في كتابيه "الغزو الفكري"، و" دراسة في فكر منحل" وردّ عليه البدراوي زهران، في كتابه"دحض مفتريات ضد إعجاز القرآن ولغته"، وردّ عليه خالد السيف في مقاله "وهلك لويس عوض"، وردّ عليه محمود رمضان في مقاله "لويس: تُرى على من تطلق النار" وردّ عليه الدكتور حلمي القاعود في كتابه:"لويس عوض: الأسطورة والحقيقة."

وعملا بقوله تعالى:"يأيها اللذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنّكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلو هو أقرب للتقوى."[المائدة:8] حتى لا نظلم الرجل وهو ميت، فلولا جرأة كتابات "لويس عوض" لما عرفنا من هو الشيخ أبو فهر محمود محمد شاكر؟ هذا العملاق المستتر، ولما استفدنا من علمه الغزير ولا استفاد منه أجيال من أبناء أمته.

ولكن من جهةٍ أخرى، ذهب ماكتب لويس عوض والذين استعملوه، والذين حذوا حذوه، ولم يكتب لهم القبول، وبقي ما كتب أبو فهر محمود محمد شاكر-رحمه الله- المجاهد المنافح الرامح عن جناب العربية، "فأما الزّبدُ فيذهبُ جفاءً وأمّا ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرضِ." [الرعد:17] هكذا هي سنة التدافع حتى في الفكر واللغة، فطرة الله التي فطر الناس عليها.

مرجع الإحالات:

(1) أباطيل وأسمار: لأبي فهر محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 2005، ص:129.

(2) دراسات نقدية في اللسانيات العربية المعاصرة: د، سعد عبد العزيز مصلوح، ط1، 1989، عالم الكتب، القاهرة، ص:6، 7.

(3) المصدر السابق، ص:226.

(4)تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر:د، نفوسة زكاريا سعيد، ط1، 1964، دار نشر الثقافة بالاسكندرية، ص:18.

(5) انظر: أباطيل وأسمار، ص:132.

(6) المصدر نفسه، ص:134.

(7) انظر: المصدر نفسه، ص:135.

(8) تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، ص:25.

(9) المصدر نفسه، ص:30.

(10) أباطيل وأسمار، ص:208.

(11) المصدر نفسه، ص:209.

(12) انظر:المصدر نفسه، ص:209، 210.

(13) المصدر نفسه، ص:130.

(14) رسالةٌ في الطريق إلى ثقافتنا: لأبي فهر محمود محمد شاكر، ط2، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، ص:144.

(15) انظر:المصدر نفسه، ص:130.

(16) انظر: أباطيل وأسمار، ص:218.

(17) انظر: النحو العربي بين الأصالة والتجديد: د، عبد المجيد عيساني، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2008، ص:181.

(18) انظر: أباطيل وأسمار، ص:116، 117.

(19) انظر: المصدر نفسه، ص:364.

(20) المصدر نفسه، ص:126.

(21) المصدر نفسه، ص:215.